سهى

تهالكت على الكنبة . جاء الكنار يقف على كتفي مغرداً فأزحته قائلة : «حل عني، مش وقتك» نظرت إلى الستائر الفاتحة بلون المشمش وإلى زجاج الطاولات، وإلى اللوحات المائية، وفكرت لو أبقى في هذا البيت ليل نهار، مع هذا الكنار. كل ما في بيتي يريح النظر، بعكس أثاث الجمعية، وكل البيوت التي أدخلها ، وعلى خلاف الشوارع المغبرة والأبنية التي لا ألوان لها والرمل وبقايا البناء.

حين دخل الرجال كنت أجلس في غرفة الاستراحة أشرب الليمونادة التي آتي بها من البيت في الترموس الصغير. جمدت ثم ارتجفت. قال لي أحدهم : «تستري يا حرمة». رأيت منشفة في الهواء باتجاهي. لا أدري من رماها. وضعتها على كتفي، مطرقة إلى الأرض، لا أرى إلا صنادل الرجال وشحاطاتهم وأظافرهم الطويلة وبياض أظافرهم المصبوغ بلون التبغ، ولم أتنفس، إلا عندما اختفت خطواتهم بعد احتجاج المديرة من الغرفة الثانية واتهامها لهم بالتعدي، والدخول على الحريم صائحة : «ما تعرفون تقرون، هذه جمعية تدرّس وتعلّم»؟ اللافتة على الباب تقول «ممنوع دخول الرجال».

كنت قد تمنيت أن يكون ذهابي إلى الجمعية هو الخلاص. ربما جنبني القلق والخوف الذي عانيته العام الماضي وأنا أعمل في المخزن.

كنت أختبىء كل يوم في صندوق كرتون كبير أسمر اللون. وأنا أفكر

فيما إذا كان المفتش سيشتبه بالصندوق، أستعيد شكله الخارجي، وجملة «انتبه قابل للكسر» وصورة القدح الزجاجي. حين أشم رائحة عطري الخفيف أخاف، لربما كان المفتش مزوداً بحاسة شم فظيعة.

كان الخوف من أن يضبطني يلغي كل الأحاسيس الأخرى. كالعرق المتصبب مني كأنه دوش مفاجىء، ورائحة الصندوق القوية الخاصة، ولما كان اختبائي في الصندوق يطول ولا أعود أسمع وقع خطوات، كنت أهدأ قليلاً، وأجد نفسي أضحك غير مصدقة أنني أختبىء من المفتش، لأنني أنثى وأعمل، بينما هناك مدن كبيرة ومحطات فضاء. وفي غرفة بيضاء، يفرز سائل الرجل المنوي في المرأة العاقر. يرى الجنين على شاشة تلفزيون وهو في بطن الأم، قاعات، ضحكات، بكاء، زحمة سير، زوابع، مدارس، نوادٍ ليلية، نساك، تصفيق. حاولت أن أتوقف عن العمل، فما استطعت. كان الدخول إلى هذا المخزن الواسع ذي الجدران البيضاء، ورؤية الشموع الملونة، والبطاريات، وبطاقات المعايدة، وأوراق الرسائل الزرقاء والفوط والمناشف المرسوم عليها الفطر والزهور، وألعاب الأطفال، وأقلام البيرو، ذات رائحة منعشة، تدل على أنها جديدة، تذكر بالحياة الطبيعية، وتفاصيلها اليومية. حتى البرادات في الجهة الثانية من المخزن، كانت بيضاء، نظيفة كبيرة، فيها علب المرطبات والبوظة ورسوم المانجا والفريز. حتى قطع اللحم المثلجة تبدو جميلة بشرايينها، فضلته على بيتي، وعلى زيارة النساء اللواتي تعرفت بهن. عدا شعوري بالأهمية، إذ كان صاحب المخزن، عامر، أوكلني بالمراسلات، وكتابة طلبات البضائع، بعد أن كان عملي يقتصر على ترتيب الألعاب وعرض الأدوات المنزلية في الطابق الثاني.

عملي شطر النهار. كان يومي يبتدىء في الرابعة بعد الظهر، بعد أن أتناول الغداء مع زوجي وابني عمر، الذي يأتي من المدرسة في الساعة الثانية، ثم أنهض بعد أن أنام عشر دقائق لأعلّم عمر دروسه العربية، قبل أن يذهب إلى المعلمة الخصوصية الست وفاء.

في بادىء الأمر، استغربت كيف عرضت عليّ زوجة عامر الأجنبية هذه

الوظيفة، ثم كيف رضيت بها، فأنا خريجة قسم أعمال إدارية في الجامعة الأميركية في بيروت، ولكن لم يقبل أن يوظفني أحد. خاف الجميع من القانون والكبسات والجزاء. حتى زوجي تنصل كما وعدني من أن يجد لي عملاً حين ألمَّ بظروف هذا البلد. بقيت مختبئة في الصندوق، إلى أن سمعت مرة وقع أقدام، تقترب منه، أو كأن يداً أو قدماً ارتطمت به. حبست أنفاسي، ووجدتني أبتهل وأرتعش، مؤكدة لنفسي بأني إذا خرجت من هذا الصندوق بلا فضيحة، فلسوف أتوقف عن العمل.

قررت الخروج من البيت وبسرعة صباح اليوم الأول لتركي المخزن. ما أردت أن أعاني كما في السابق من الضجر، رغم أني عاندت الزكود الذي يكتنف هذا المكان، أو المستنقع الذي لا يجف ولا تزيد مياهه، وانغمست كالباقيات في الحياة هنا حتى لا أتأفف، تركت نفسي بلا أخبار عالمية ومحلية، بعيدة عن القرن العشرين. أصبحت قضيتي مقادير عجينة الكعك، البحث عن أصدقاء لعمر، آخذه لرؤية سعدان صغير رغم معرفتي أنه عضّ صاحبه. هنأت نفسي حين استطعت تجهيز غداء، لخمسة رجال أعمال قبل مجيئهم بساعة واحدة، تقديم الحفلات للأطفال بعد أن صنعت بنفسي مسرحاً للدمى المتحركة، دققت مساميره، وعلقت الستارة بنفسي، أرسلت بطلب العرائس من لبنان. فلما أتتني فرحت بها أكثر مما فرح بها إبني وأصدقاؤه. لكن لما جاءت أمهات الأولاد وجلسن بلا حماس ولم يصفقن للمحاولة، حقدت عليهن وحرمتهن الحلوى التي أعددتها.

هل أذهب إلى سوزان؟ مريم، إلى أم كيروز، إلى سوزان إلى هند، إلى ريم، إلى استيفانيا، إلى ليلى، سوزان؟ أو إلى أم كيروز؟ إلى تهاني؟ سوزان؟ إلى أمال أو إلى مريم؟ إلى سوزان؟ شاهناز؟ إلى خلود إلى رجاء إلى دلال أم إلى صباح؟ سوزان؟ لما أبعدت سوزان عن فكري، تصورت بيوت الباقيات، ثم سمعت أصواتهن، عرفت ما تخبئه الزيارة.

صباح: تحليل العلاقات الزوجية، الكرامة، الأطفال. شاهناز: البيت والأثاث ثم البيت والأثاث وابنها الناجح جداً جداً وابنتها

المتوسطة النجاح والحق طبعاً عالمعلمة. رجاء: أفضل طريقة للدفاع عن النفس بهار وفلفل أسود تضعه في صحن قرب سريرها كلما سافر زوجها، حتى إذا ما حاول أحد الاعتداء عليها رمته بالصحن. استيفاني: فرصة العمر في الصحراء لا وقت للضجر، تستورد كل شيء من بلادها السويد وتبيعه. تنكش وتزرع في أصاصي، حين تصبح البزرة غصناً أخضر تبيعها. تقص الشعر وتلونه، تخيط الملابس. تخبز الكعك، كل هذا لقاء أجر، تلف المال في ورق الألمنيوم وتضعه في الثلاجة. مريم: الأناقة في كل مكان حتى في الصحراء. جزمات جلدية في الحر. إن ما يضايقها هو الرقابة التي تدلق حبرها الأسود على معظم صفحات المجلات إذا ما مزقت بعضها. التمارين الرياضية للمحافظة على الرشاقة. أفضل طريقة لتمارين البطن هو حبس البول أطول مدة ممكنة. أم كيروز: «الله يشنطت اللي شنطتنا، الله يقصف عمر اللي كان السبب، يا حرام يا حرام يا لبنان. امبارح كان في قواص، بس اليوم هاديه. ولو حتى تحت القواص أنا مستعدة عيش. مش هون؟ «بحفرة نفرة». ريم في النهار: شغل البيت لا يتركني أرتاح دقيقة، مسؤوليات الأولاد كذلك. ريم في الليل: ها. ها. ها. لا أستطيع لا أستطيع تبديل ضحكتي التي ينتقدني عليها زوجي. لما سألت غسان صديق زوجي، إذا كان شاربه مستعاراً، أجابني «جربي». مددت يدي وشددت بالشعيرات وكان حقيقياً. قال ولو ما في بوسه؟ أجبته: ليش لا. وضحكت ها. ها. ها.

تهاني: إيه ده! التلفون يرن كل ثانية. وعزومة عالشاي والقهوة، من بدري الصبح، إيه ده أكل وشرب ما فيش حاجة ثانية، هزار ومنافسة بالهدوم، حتى ونحن منلعب بريدج الستات بيجو وخواتم الألماز زي البيضة، الله ما نحنا سبور بقى وكلنا متعلمات خريجات جامعات، بس نعمل إيه؟ ممنوع الشغل، ممنوع سواقة السيارات، وما فيش حته تتفسح فيها - قوليلي والنبي بتشربي إيه، لا والنبي تقولي، شاي واللاقهوة واللاشاي بالنعناع. والنبي تذوقي «أم علي». ما تعرفيش أم علي.. الله حد ما يعرفش أم علي؟ شوفي يا ستي تحضري الرقايق والفاكهة و... ما عرفتيش الشيخة عملت عزومة كبيرة وعزمت ابتسام ومنال وهم قاعدين قالت لهم واحدة ست

أن العزومة عشان ابنها الشيخ عايز يتجوز، وقالت واحدة ثانية يمكن في كاميرا مستخبية وراء الستائر. فضلت ابتسام ومنال يبصوا في الستائر لحد ما طلعت عينهم. وبعدين الشيخة قالتلهم دول الستائرعاملهم فالنتينو، شوفي يا ستي، بقي فالنتينو يعملهم ستائر. . .

تعرفت عليهن في السنة الأولى لقدومي، شعرت ككل امرأة تأتي إلى هنا، أن هذه الأيام غير محسوبة من الزمن، أخذت أصادق أياً كانت لقتل الوقت، كنت أعيش في كمب، الغرف صغيرة معتمة، الحمام يذكر بحمامات البونسيونات، كان البيت مقبولاً إذا ما قورن بالبيوت المغبرة والطرق الملتوية والدكاكين القليلة البدائية في الشارع الذي أسكنه. حاولت أن أحسّن البيت. بدلت الستائر السميكة الغامقة بأخرى خفيفة. وضعت فوق الكنبات شراشف الأسرة الملونة، التي أتيت بها مع ملابسي. ألصقت على الجدران، مناظر لبيوت سويسرية وبحيرات. كان عمر لا يزال مع أمي في بيروت ريثما أنتهي من تحضير البيت.

عرفت أن الحياة هنا غريبة حين افتقدت الثوم لطبختي، ولم أستطع الخروج إلى الدكان لشرائه. فتحت وقتها الباب، ووقفت عند عتبته المرتفعة عن الأرض، أنظر حولي، عبر البيوت الخشبية الأخرى، المطلية باللون الأبيض، والأشجار القليلة، وخزان المياه، والشمس الحارقة فوق الأسفلت، جعلتني أفكر وكأني في محطة فضاء، والبيوت متناثرة، والأبواب مغلقة، وصوت المكيفات يهمهم. فقط حين أركب إلى جانب زوجي للتسوق، كنت أفرح لمفارقة البيت. لكن، مهما حاولت شراء كل ما أحتاجه، إلا أني كنت أنسى الكثير. ولم يكن المعروض على الرفوف يساعدني، اختلطت جميع السلع معاً. خفاقة البيض مع القماش مع الخضار، جانب ألواح الصابون، وكتب تعلم العربية، والخبز، جانب الخناجر ونقود ماريا تريز الفضية.

عرفت أن سكان الكمب هم من العرب والأجانب. لكني لم أقو على طرق أبوابهم، ربما لأني كنت أسمع شتائم الأهل، وصراخ الأولاد، حفظت

خلافاتهم، رغم ارتفاع ضجيج تلفزيوناتهم. حفظت أيضاً أسماء الأولاد، وجملة الأم: «مش فاكرة» وكلمة الأب: «عزرائيل».

أيام قليلة، وتوافدت النساء عليّ، يلمنني كيف ما دققت أبوابهن، واحدة اسمها أم كيروز قالت: «أوعي تكوني ملاك حتى ما شعرنا بك». والثانية علقت مقهورة من عدم فطنتها: «عجيب كنت أسمع السيفون، وفكر عم يشتغل السيفون على كيفه، وأسمع زيزقة، وقول يا رجال حاج تاكل عم تزيزق كل ما تمشي». شعرت بخيبة أمل. أنا لست في الصحراء التي رأيتها من الطائرة، ولا التي قرأت عنها أو تخيلتها. الرمال موجودة، الرياح موجودة، لا بيوت قديمة، وما أردت أن أحكم على الصحراء، من خلال الأسابيع القليلة التي قضيتها في البيت الخشبي، بين البيوت الخشبية الأخرى. لكن الانطباع الأول هو الأهم، لأن العين تعتاد، ولا تعود تمد العقل والقلب بما ترى وبما تشعر. الحياة اليومية موجودة في الصحراء، لكن التي تُذكر بربّات البيوت اللواتي حياتهن لا تتعدى رائحة الكزبرة، والجارة تفتح الباب نصف فتحة، لأن على فخذيها عقيدة سكر، التبصير في القهوة، والقمح المغلي للسنينية، والقيل والقال وشغل الصنارة. وحفاضات الأولاد. كنت أعرف أني مختلفة عن جاراتي، لكن، اطمأننت لوجودهن حولي.

أما زوجي فقد بدأ يكتشف ماذا بعد هذا الشارع، وذاك المنحنى، وهذه الدكاكين وخلف ذاك البناء، بيوت من حجر واسعة، لها حدائق صغيرة، وإن كانت من حصى ورمل. طلب نقله إلى بيت آخر. ولدهشتي لبي طلبه. ولما أسرعت أزف الخبر إلى جاراتي، أريد إدخال الفرحة إلى قلوبهن، بأن هناك بيتاً يستطعن زيارته خارج الكمب الذي يسكُنّ في نطاقه. إذ كن يتحدثن طويلاً عن المواصلات، واشتراك العائلات كلها بشراء سيارة، أو استقدام سائق «حتى يزرن الشياطين»، كما علقت أم غسان. وبدل ما يفرحن بخبر انتقالي، بدت على وجوههن علامات الحرقصة، لا الحزن. ابتدأن جميعهن يلمن الشركات التي يعمل لديها أزواجهن، يتحدثن عن زوجة المدير، عن بيتها والخدم والسائق وعقدها اللؤلؤ. ارتفعت

أصواتهن، كأنهن في حمام قطعت مياه حنفياته ورغوة الصابون ما زالت على أجسامهن. قالت إحداهن موجهة اللوم لي: «صار لك شهران، ونحن ثلاث سنين»؛ وأضافت أن العقارب والأفاعي والجراذين لا بد أنها في المئات، تحت كل هذه البيوت الخشبية، المرفوعة عن الأرض. وبأنها تسمع كل يوم النقر والفحيح. أخذن يتسابقن في سرد أخبار وحكايات الجرذان. قالت أخرى ان جرذاً كان يسحب الدجاجة وهي في الفرن. شهقن جميعهن، وقاطعتها أم غسان: «كيلو لحمة اختفى عن الطاولة لما رحت أفتح الباب، يمكن الجرذون عم يراقبني».

عندها أمسكت مني ابنها، وقلبته بين يديها، تبحث في قدمه البيضاء السمينة، ثم قالت جواباً على استفسارهن: «في عقارب، يمكن اللي صار للصبي عقصة عقرب، من كم يوم صرخ، شلته من تخته وصار ينتفخ، لونه أزرق. وكل جسمه صار مثل حب الرمان».

نهضن، وأنا أرى فناجين القهوة على الطاولة. شعرت للحظة بحزن خفيف. ثم نهضت أضع كل ما تجمّع لدي طوال هذين الشهرين في صناديق. لما جلست، بدا البيت، كما دخلتُ إليه أول مرة، الستائر سميكة، خط من الغبار ينساب في الفضاء. الكنبات خشنة الملمس. لم أستطع إلا أن أشعر بالحزن على جاراتي، لأنهن في هذه البيوت. فكرت أن أدعوهن لزيارتي في البيت الجديد. لكني ما عدت رأيتهن أو حتى لمحتهن عن بعد منذ ذاك الصباح. حتى أنني كلما مررت قرب الكمب، ألتفت إلى الجهة الأخرى. رؤيتي للسقوف والجدران الخشبية الصفراء. وغرسات الدفلى المغبرة، هي كلها، تذكرني بنفسي وأنا في داخلها، بين النسوة لا حول ولا قوة، عدا أن فكرة العيش مؤقتاً في البلد لم تجعلني أشعر بالثبات كالست وفاء إزاء بيتها، فهي زرعت الحبق والفجل، أقامت قناً للدجاج، والديك الذي أصبح خطراً، لحقت به الست وفاء بالمكنسة فلحقها بدوره. كانت تفوح من بيتها رائحة الاستقرار. وأنا أرى مرطبانات المربى، الكشك والصعتر والبرغل مصفوفة في المطبخ. كنت أحب الدخول إلى بيتها، وشرب شراب التوت، كنت أتحجج بالإتيان بعمر والسؤال عنه. لأرى الأولاد ملتفين حول الست وفاء،

التي تعلمهم واحداً واحداً، وتملي عليهم الإملاء، وتفقي البازيلا وتقطع اللوبياء في آن. كان الأولاد يحبونها رغم صراخها، وشدّ أذن من يخطىء، ومناداتها لهم، أفندي، وست زبيدة، وتهديدها الدائم بأخذهم إلى مدرسة الفلاء، وهم يضحكون لأنهم رأوا مدرسة الفلاء، والشيخ والعصاة. كأن الحياة تبدلت هنا، بعد أن انتقلتُ إلى الفيلا الجديدة. لم أعد أشعر بركود الأيام، كما في الكمب. أخذت أتسلى بخياطة الستائر والوسائد، وبتعليق اللوحات، وترتيب الخزائن. استعرت كتباً عن الحدائق. وأخذت أنكش الحديقة، أزرع الحب، أنتظر من يوم إلى آخر أن يطل اللون الأخضر. أدعو النساء لزيارتي. مزهوة ببيتي الجميل، أقدم لهن الشاي والكعك في فناجين، ألوانها بلون الستائر. قررت أن أستفيد من وجودي هنا. انضممت إلى صف التمارين الرياضية عند مريم، ثلاث مرات في الأسبوع لساعة واحدة. وإلى صف تحضير الكعك وتزيينه، وإلى مجموعة تقرأ الكتب وتناقشها. حتى اني أصبحت تلميذة عند استيفانيا، أطرز بالابرة وأتعلم الباتشورك، وكنت أود أن آخذ دروساً في تنسيق الزهور الاصطناعية، لكن الوقت لم يسمح. كنت أعرف في قرارة نفسي أن تعاملي مع الحياة شبيه بتسلق الأودية والانحدار في الجبال. خفت من مقتي الشديد لكوني أعيش حياة قاحلة وغير طبيعية. لذلك أخذت أدافع عن الحياة هنا، حتى ألقّن عقلي بما يجب أن يفكر فيه. وكنت في مناقشاتي مع اللواتي يكرهن العيش هنا من عربيات وأجنبيات أتخبط أيضاً في التناقض. وأسير بالمناقشة إلى حد اللامعقول بل والتفاهة. قلت لهن إن الحياة هنا مثالية، وإنهن محظوظات، فهن يرين المدن كيف تُشاد، ويشهدن على تحول الإنسان من البداوة إلى المدنية، وأضفت بأن هذه فرصة، إذ لا شيء مهيأ لهن كما في البلاد الأخرى. يجب أن يحاربن من أجل ما يردنه فعلاً. رغم أني فكرت بيني وبين نفسي في أن الوقت يضيع في البحث وعمل البديهيات التي أصبحت معروفة وموجودة أينما كان.

ولم تسر الأمور حسبما أقنعت عقلي، وأنا أجبر نفسي على حضور الصفوف، وحين أخذت أشبّه النساء اللواتي يحضرن معي صف التمارين